الخليفة العالم
الحكم المستنصر

بقلم الدكتور إحسان عباس

شهدت الأندلس فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر نهضة ثقافية واسعة، ويرجع أكثر الفضل فى ذلك البعث العلمى والأدبى إلى الحكم نفسه ؛ فهو الذى كان يوجه الحركة الثقافية ويرعاها : أولاً حين كان ولياً للعهد فى أيام الناصر أبيه ؛ وآخراً فى أيام خلافته من سنة (٣٥٠ – ٣٦٦ هـ) حين ظل يحوطها بالتشجيع والتعهد والحماية .

ومما أغرى الحكم بالتوفر على هذه الناحية أنه هو نفسه كان مثقفاً واسع الاطلاع يجد متعة فى شهود مجالس العلماء والسماع منهم والرواية عنهم : سمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن رحيم ومحمد بن عبد السلام الخشنى وزكرياء بن خطاب وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم ، وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء[1] .

وكان نظاراً فى الكتب كثير التعليق عليها ، وقلما وُجد كتاب فى خزائنه إلا وفيه قراءته وتعليقاته عليه ، وكان يكتب فيه بخطه – إما فى أوله أو آخره أو فى تضاعيفه – نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به وتذكير أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن . وكان موثوقاً به مأموناً عليه ؛ حتى صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ أهل الأندلس وأئمتهم ، ينقلونه من خطه[2] . قال الحميدى فى بعض نقوله : هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر ، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا[1] .

وذكر ابن الأبار أنه اجتمع له جزء مفيد مما وجده بخط الحكم المستنصر ، وأنه وجده يشتمل على فوائد جمة فى أنواع شتى[2] . ومن تقييداته أمثلة منقولة فى طبقات الزبيدى والمرقبة العليا للنباهى وتاريخ ابن الفرضى وغيرها .

وقد كانت خطة الحكم فيما يتأتى له من نهضة علمية ، تمتد إلى أمور متشابكة ، منها : إغراء العلماء بالقدوم إلى الأندلس ، أو بالتأليف من أجل خزائن الكتب الأندلسية ، ونقل الكتب من الخارج ، وتشجيع الثقافات المختلفة من أدبية ودينية وفلسفية ، ودفع ذوى الملكات من الأندلسيين إلى جمع التراث الأندلسى قبل أن يتطاول عليه الزمن ويتحيفه النسيان .

فمن إغرائه للعلماء والأدباء أن قدم عليه كثير من المشارقة ، تميز من بينهم أبو على القالى اللغوى ، ولا يستبعد أن يكون الحكم هو الذى كتب إليه ورغبه فى الوفود عليه ، فتلقاه مرحباً وبالغ فى إكرامه ، وهو يومئذ ولى للعهد ؛ إذ كان قدوم القالى فى خلافة الناصر سنة ٣٣٠ هـ . وظل الحكم يوالى إكرامه ، بعد أن صارت إليه الخلافة ، وينشطه بواسع العطاء ، وباسمه طرز أبو على كتاب الآمالى ، وكان القالى يمليه على طلبة من بنى ملول وغيرهم بالزهراء كل يوم خميس ،

(١) النفح ١ : ١٨٦ ط . بولاق .
(٢) الحلة السيراء ، الورقة : ٤٨ .

(١) جذوة المقتبس : ٩٤ .
(٢) الحلة ، الورقة : ٤٨ .

ثم زاد فيه ، فجعله ستة عشر جزءاً للعامة ، ثم زاد فيه فبلغه عشرين جزءاً للحكم المستنصر [١] .

ولا ريب فى أن قدوم القالى إلى الأندلس كان عاملا من عوامل النهوض بالدراسات اللغوية والأدبية ، ولم يكن لدى الأندلسيين قبل قدومه من المشهورين إلا ابن القوطية وثابت وابنه قاسم ، وإلا الزبيدى ، وهذا الأخير — على علمه — تتلمذ على القالى ، وأفاد منه علماً جمًّا . ويحتاج أثر القالى فى الحياة العلمية بالأندلس إلى دراسة ليس هذا مكانها ، وحسبى أن أشير هنا إلى كثرة ما نقل معه من كتب مشرقية فيها عدد كبير من الدواوين ، وبخاصة دواوين الجاهليين والأمويين والمجموعات الشعرية الهامة كالمفضّليات والنقائض وشعر هُذَيل [٢] .

ومن العلماء الذين أغراهم كرم الحكم وتشجيعه محمد بن يوسف أبو عبد الله التاريخى الورّاق الذى ألّف للحكَم كتاباً ضخماً فى « مسالك إفريقية وممالكها » ، وألّف فى أخبار ملوكها وحروبهم والغالبين عليها كتباً جمة [٣] .

ومنهم أيضاً أبو الحسين محمد بن العباس مولى هشام بن عبد الملك ، وقد أجرى عليه المستنصر رزقاً موسعاً ، فقرأ عليه الناس كثيراً ، شيوخاً وشباباً ، ومن تلامذته الزبيدى ، وأهم ما رواه عنه الأندلسيون ديوان الصنوبرى [٤] .

وأكرم الحكم كذلك أندلسيًّا من الذين هاجروا إلى المشرق ، وهو أبو سليمان الهوّارى وأنزله بالزهراء ، ووسّع عليه ، وقرأ عليه ناس كثيرون [٥] .

وأغدق الحكم العطايا على البعيدين من العلماء والأدباء والفقهاء ؛ لكى يؤلفوا من أجل خزائنه ، أو يهدوا إليه مؤلفاتهم . فمن وصلت إليهم صِلاته أبو إسحاق محمد ابن شعبان بمصر ، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى فيلسوف العرب ، وأبو الفرج الأصبهانى ، وقد تلقى منه أبو الفرج ، فيما يقال ، ألف دينار ذهباً عيناً ليرسل إليه نسخة من كتابه الذى ألّفه فى الأغانى ، فأرسل الأصبهانى من كتابه هذا إلى الأندلس نسخة منقحة ، قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم ، وألف له أيضاً أنساب قومه ، بنى أمية ، موشحة بمناقبهم وأسماء رجالهم ، وأنفذ معه قصيدة يمدحه بها ، ويذكر مجد قومه بنى أمية ، وفخرهم على سائر قريش ، فجدّد له عليه الصلة الجزيلة [١] .

أما فى جمع الكتب من الأمصار فكان شأنه فى ذلك عجيباً ؛ إذ اتخذ له ورّاقين بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ووجّه رجالاً إلى الآفاق بحثاً عن الكتب ، وكان من ورّاقيه ببغداد محمد بن طرخان . وكان يدفع فى الكتب أثماناً عالية ، فحملت إليه من كل جهة ؛ حتى غصّت بها بيوته ، وضاقت عنها خزائنه ، وحتى جمع منها ما لم يجمعه أحد قبله ، وكاد يضاهى ما جمعته ملوك بنى العباس فى الأزمان الطويلة ، وكان عدد فهارس مكتبته أربعاً وأربعين فهرسة ، فى كل واحدة خمسون ورقة [٢] . ويقال إن عدد الكتب بلغ أربعمائة ألف مجلد .

ولم يكن الحكَم يفضل علماً على آخر ؛ ولذلك امتلأت خزائنه بكتب الحكمة والفلسفة والمنطق والطب ، وأقبل الناس على قراءة علوم الأوائل [٣] ، وكان الناس فى الأندلس ، قبل ذلك ، ينفرون منها . وأصاب العملَ

(١) فهرسة ابن خير : ٣٢٥ .
(٢) المصدر السابق : ٣٩٥ — ٤٠٠ .
(٣) الجذوة : ٩٠ .
(٤) الفهرسة ٤٠٨ .
(٥) الفهرسة : ٣٥٨ .

(١) الحلة السيراء ، الورقة : ٤٨ .
(٢) هذا هو ما جاء فى الحلة السيراء ، وجمهرة الأنساب : ٩٢ والرقم يختلف فى مصادر أخرى ، أنظر المغرب ١ : ١٨١
(٣) طبقات صاعد : ٧٥ .

فى هذه الناحية العلمية شيء من التنظيم منذ أن وصلت إلى الأندلس هدية رومانس الإمبراطور البيزنطى سنة (٣٣٧ هـ) ، وفيها كتاب ديسقوريدس فى النبات مصوراً ، مكتوباً بالإغريقية ، ولم يكن بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ هذه اللغة ، فسأل الناصر — وهو الخليفة عهدئذ — إمبراطور القسطنطينية أن يبعث إليه رجلا يحسن الإغريقية واللاتينية ليُعلِّم عبيداً له يكونون مترجمين ، فبعث راهباً يدعى نقولا (سنة ٣٤٠هـ) تولى مع نفر من الأطباء بالأندلس البحث عن أسماء عقاقير ذلك الكتاب ، والوقوف على أشخاصها ، وتصحيح النطق بأسمائها . وعاش نقولا الراهب حتى صدْر دولة الحكَم . وكان فى هدية الإمبراطور أيضاً كتاب آخر فى التاريخ هو كتاب « هروسيس » المسمى Historia adversus paganos ، وقد قال الإمبراطور حين أرسله مخاطباً عبد الرحمن : « أما كتاب هروسيس Orosius فعندك فى بلدك من اللطينيين من يقرؤه باللسان اللطينى ، وإن كاشفتهم عنه نقلوه لك من اللطينى إلى اللسان العربى » .

ويقول ابن خلدون : إن هذا الكتاب ترجم للحكم المستنصر ، ترجمه له قاضى النصارى وقاسم بن أصبغ [١] . أما قاضى النصارى فى قرطبة أيام الحكم فهو وليد بن حيزون [٢] .

ومما يلحق بهذا النشاط العلمى كثرة الأطباء وعلماء التنجيم الذين تجمعوا حول الناصر والمستنصر ، وكان الأسقف القرطبى ابن زيدمختصًّا بالمستنصر ، وله ألّف كتابَ « تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان » [٣] . أما الطبيب حسداى بن إسحاق اليهودى فقد استغلّ حظوته عند الحكم ، وتوصّل من ذلك إلى استجلاب ما شاء من تآليف اليهود بالمشرق ، ففتح بذلك ليهود الأندلس باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك ، وكانوا من قبل يعتمدون فى فقه دينهم وسنى تاريخهم ومواقيت أعيادهم على يهود بغداد [١] .

وخصص الحكم جانباً من دار الملك يجلس فيه العلماء للتأليف أو الترجمة أو مقارنة النسخ الوافدة ، وفى تلك الدار جمع مرة بعض علماء اللغة وهم محمد بن أبى الحسين وأبو على القالى وابنا سيد ، وطلب إليهم أن يقابلوا نسخ كتاب « العين » للخليل بن أحمد ، وأحضر لهم من الكتاب نسخاً كثيرة ، بينها نسخة كتبها القاضى منذر بن سعيد البلوطى رواية عن ابن ولاد بمصر [٢] .

* * *

ولعل أبرز ما أدّاه الحكم فى تاريخ الثقافة الأندلسية هو حفزُه الملكات الأندلسية على التأليف وجمع التراث الأندلسى ، فجُمعت له كتبٌ كثيرة فى أخبار شعراء الأندلس ، رأى منها ابن حزم « أخبار شعراء إلبيرة » فى نحو عشرة أجزاء [٣] . وأمر بجمع شعر ابن عبد ربه ، وقد رأى منه الحميدى عشرين جزءاً ونيِّفاً مما جمع للحكم [٤] ، وأمر إسحاق بن سلمة — وكان حافظاً لأخبار الأندلس — أن يجمع كتاباً فى أخبارها [٥] . وألف له ابن فرج كتاب « الحدائق » ، وضمّنه شعر الأندلسيين فقط ، معارضاً فيه كتاب « الزهرة » لمحمد ابن داود ، مُرْبياً عليه فى عدد الأبواب والأبيات [٦] . وألّف له أيضاً خالد بن سعد كتاباً فى رجال الأندلس اتخذه ابن الفرضى مصدراً له فى تاريخه [٧] .

---

(١) انظر ترجمة قاسم فى الجذوة : ٣١٢ ، وقد توفى سنة ٣٤٠ هـ ، ومن هذا يستبعد اشتراكه فى الترجمة .

(٢) النفح ١ : ١٨٤ .

(٣) النفح : ٢ : ٧٧٨ .

(١) ابن أبى أصيبعة ٢ : ٥٠ .

(٢) الجذوة : ٤٧ .

(٣) النفح ٢ : ٧٧٣ .

(٤) الجذوة : ٩٤ .

(٥) ابن الفرضى ١ : ٨٩ .

(٦) الجذوة : ٩٧ ، والمغرب ٢ : ٥٦ .

(٧) ابن الفرضى ١ : ١٥٥ .

وطلب إلى محمد بن الحارث الخشنى ، أيام كان الحكم وليًّا للعهد ، أن يؤلف كتاباً فى قضاة الحاضرة العظمى – قرطبة – فكتب كتابه المسمى : « قضاة قرطبة » ؛ وبيّن فى مقدمة ذلك الكتاب مدى رغبة الحكم فى التذكير بالمنسىّ من الأنباء والإشارة للسالف من القصص ، وبخاصة ما كان فى الأندلس قديماً ، وفى عصر الحَكم حديثاً . ووصف اندفاع العلماء إلى التأليف بقوله : « فتحرك أهل العلوم بما حركهم إليه الأمير الموفق ، فاستحفظوا ما أضاعوا من غرر الأخبار ، وقيدوا ما أهملوا من عيون المعارف »[1] ؛ وللخشنى ، عدا هذا الكتاب ، كتب أخرى كثيرة ألّفها جميعها للحكَم المستنصر[2] .

ولم يكن الحكم يدع فرصة تفوته ، إذا أمكنته ، فى تشجيع التأليف ، وله فى هذا الباب أخبار تدل على استغراق شديد فى هذا الأمر : من ذلك أنه أراد الغزو مرة سنة (٣٥٢ هـ) ، فاعتذر عن مصاحبته فى تلك الغزوة عالم اسمه ابن الصفّار ، لضعف جسمه ، فأرسل إليه من يقول له : « إن ضَمن أن يؤلف فى أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصُّولىّ فى أشعار خلفاء بنى العباس أعفَيْته من الغَزاة » ؛ فاختار ابن الصفّار التأليف على الخروج فى الغزو ؛ وعندئذ خيّره الحكم بين أن يكتب الكتاب فى بيته أو فى دار الملك ، فاختار أن يكتبه فى دار الملك ؛ ليكفل لنفسه الانقطاع والوحدة ، وينفرد دون الزائرين والمترددين إلى بيته . ولما كمل الكتاب فى مجلد واحد حمل إلى الحكم ، واستقبل به ، وهو راجع من غزاته ، فتلقاه مسروراً[3] .

وكثيراً ما كان الحَكم يتعدى حدّ اقتراح الموضوع على المؤلف ، فيرسم له طريقة تبويبه وتقسيمه ، كما فعل مع الزُّبيدى عندما طلب إليه أن يكتب كتاباً فى طبقات النحويين ؛ فقد عرّفه المنهج الذى يريد أن يسلكه فى تأليف الكتاب ، يقول الزبيدى فى مقدمته : « وإن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله ، رضى الله عنه ، لما اختصّه الله به ، ومنحه الفضيلة فيه ، من العناية بضروب العلوم ، والإحاطة بصنوف الفنون ، أمرنى بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين فى صدر الإسلام ، ثم من تلاهم من بعدُ ، وهلمّ جرّا ، إلى زماننا هذا ، وأن أطبقهم على أزمانهم وبلادهم بحسب مذاهبهم فى العلم ومراتبهم . . . فألفت هذا الكتاب على الوجه الذى أمرنى به . . . وأقمته على الشكل الذى حدّه ، وأمدّنى ، رضى الله عنه ، فى ذلك بعنايته وعلمه ، وأوسعنى من روايته وحفظه ؛ إذ هو البحر الذى لا تعبر أواذيّه ، ولا تدرك سواحله ، ولا ينزح غمره ، ولا تنضب مادته »[1] .

ولم ينس الحكم أن يفرد للنحويين واللغويين الأندلسيين قسماً خاصًّا فى ذلك الكتاب . ويفهم من مقدمة « لحن العامة » أن الزبيدى ألّفه للحكم المستنصر كذلك[2] .

* * *

وشجّع الحكم أيضاً التأليف فى الفقه والحديث ، فعهد إلى يعيش بن سعيد بن محمد الوراق بتأليف مُسند حديث ابن الأحمر ، وكان قد سمعه من صاحبه[3] وجمع له ابن المكوى بالتعاون مع المعيطى كتاباً سمّياه « الاستيعاب » من مائة جزء ، جمعا فيه رأى مالك وأقاويله ، فسُرّ بذلك ، ووصلهما ، وقدمهما إلى الشورى فى أيام القاضى محمد بن إسحاق السليم[4] .

---

(١) قضاة قرطبة : ١٠ – ١١ .

(٢) ابن الفرضى ٢ : ١١٥ .

(٣) الجذوة : ٢٣٥ .

(١) طبقات الزبيدى : ٩ – ١٠ .

(٢) انظر الورقة الثالثة من لحن العامة ، نسخة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

(٣) الجذوة : ٣٦٤ .

(٤) الصلة : ٢٨ .

وأمر من بوّب له مستخرجة العتبي فى الحديث ، وهى مجموعة أكثر فيها مؤلفها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة[١] .

ولم ينس الحكم أمر التعليم ، فاتخذ المؤدبين ليعلموا أولاد الضعفاء والمساكين القرآن ، وأنشأ لذلك حول المسجد الجامع ، وفى أرباض قرطبة ، سبعة وعشرين مكتباً ، وأجرى المرتبات على المؤدبين ، وعهد إليهم الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم[٢] .

* * *

من كل ذلك يتجلى لنا مدى الجهد الذى بذله الحكم المستنصر فى نشر الثقافة وتشجيع العلم ، مؤيداً كل أعماله بروح من التسامح . وقد تقلص ظل التسامح بعد وفاته ، حين عمد المنصور بن أبى عامر إلى خزائنه واستخرج الكتب المتصلة بعلوم الأوائل ، وأمر بإحراقها وإفسادها تحبباً إلى العامة واستئلافاً لقلوبهم[١] .

وقضت الفتنة البربرية سنة (٣٩٩ هـ) على الجانب الأكبر من جهود الحكم ، وهو تلك المكتبة الحافلة التى كونها ؛ فقد نُهبت المكتبة فى الفتنة ، كما نهبت غيرها من المكتبات . وكان لهذه الكارثة وجه طيب ؛ فإن كثيراً من الكتب بيع فى سائر المدن الأندلسية ، وتعرّف الناس خارج قرطبة ما لم يكن تصل إليه أيديهم من علوم .

(١) ابن الفرضى ٢ : ٧٦ .
(٢) ابن عذارى ٢ : ٣٥٨ (ط . بيروت) .

(١) طبقات صاعد : ٥٥ .